الفصل الثانى

تربية الأعماق

الفصل الثانى

تربية الأعماق ..

* القوة الهائلة
* استراتيجية
* هذا المجتمع النامى
* لماذا تدق الأجراس ؟
* عواصف الندم
* قبس من الأصالة
* أجيال ومسئوليات
* نقاط على حروف حائرة
* أيها الطفل

تربية الأعماق

درجنا على رص الكثير من العبارات التى تحدد معنى كلمة التربية . وقد تناول البعض كلمة التربية من المدخل اللغوى ، وأفاض وأزاد مما حفظه بعض الطلاب ورددوه - كالببغاوات دون أن يعمل فيهم عملا بناء . وتناول بعض المفكرين معنى التربية فلسفيا ممتزجا بالجانب النفسى فكانت هى عملية نمو تشمل الكائن الحى من جميع جوانبه . واستراح الأساتذة إلى هذا المعنى وقتلوه شرحا وتحليلا وتدقيقا وتفسيرا . واتضحت معالم هذه العملية التى يخضع لها الإنسان من المهد إلى اللحد بأن شرحت إلى شرائح محددة منها الجسمية والعقلية والوجدانية والخلقية ... إلخ . وكان جميلا ورائعا أن تربية الإنسان فيها التكامل والشمول ، فيجب أن يهتم به من جميع تلك الشرائح أو النواحى حتى تصير هناك عملية تربية مقصودة له ، بالاضافة إلى ما يؤثر فى تلك الشرائح من مؤثرات أخرى غير مقصودة ، أى لم تعد لها مناهج وأساليب تعليم متنوعة ومتدرجة من السهولة إلى الصعوبة ، ومن البساطة إلى التعقيد .

فطلعت علينا عشرات ومئات الكتب فى أصول التربية والمناهج وطرق التدريس والوسائل التعليمية إلخ ... وتعتمد - فى جلها - على هذا المعنى الذى لقى هوى وراحة عند المتكلمين فى التربية والمشتغلين بها ، وخرجت شعارات كثيرة الصياح عالية الصوت منبثقة عن هذا المعنى، ارتبطت بمختلف مراحل عمر الإنسان الذى يربى ، كما ارتبطت أيضا بمختلف المجتمعات من ريف وحضر وبدو رحل ، ومن سكان على السواحل... وبيئات فقيرة وأخرى مستريحة ماديا ... وكل هذا كلام معقول مقبول ، ولكن ...

إذا سمح القارىء الكريم فإن لمؤلفى هذا الكتاب وجهة نظر أو رأيا خاصا فى قضية معنى التربية . ولا يستطيعان الإدعاء بأن هذا الرأى خال فى بعضه أو كله من

التأثر بآراء أخرى شرقية وغربية ، قديمة وحديثة ، تقليدية وتقدمية . ولكنهما يؤكدان بأن التغلغل الدينى المتمكن له الأثر الفعال القوى إلى جانب ما أخذا به من ثقافات أخرى غير عربية بعد دراستها فى تفحص غير سطحى مطلقا .

القوة الهائلة

نرى أن المسألة فى أساسها ترتبط بتربية الأعماق من أجل الأخلاق ، كهذا الجيش المقاتل الذى يرسل طائراته لنسف خطوط العدو ومراكز تموينه فى العمق ، مما يربك كل جبهته المقاتلة فلا تجد ما يجعلها قادرة على التصدى للهجوم . إن سلامة الأعماق تجعل خطوط التموين والسلاح مستمرة فى تدفق . كماأن الأمن الداخلى يوجه كل الطاقات لمواجهة العدو أو الأعداء من الخارج .

إن فساد الأعماق أو التخلخل الخلقى الداخلى لايؤدى إلا إلى السلبية والضياع والانهيار .

تربية الأعماق تعنى الأصالة فى الجذور التى تنبت منها الأقوال والأعمال ، ومن طبيعتها - إذا نمت - أن تزداد تأصلا وتمكنا مع سنى عمر الفرد . وهى تبدأ فى الطفولة بالأعمال لا بحفظ الأقوال والشعارات ، وتتم الأعمال تحت الملاحظة الدقيقة الواعية من الراشدين لسلوك الأطفال .

إن بذور العلقم والحنظل لاتثمر الحلو الشهى .

ترى تربية الأعماق أن الإنسان أجل وأعظم من كونه كائنا بشريا ، وإن الله عز وجل قد وهبه الإمكانات التى تجعله قادرا على أن يحيا على الأرض حياة تسعده وتسعد غيره ، لا مجرد أن يعيش عليها محققا لنفسه لذات وشهوات ، ناسيا أنه واحد وسط مجموعة ، وعليه أن يعمل لغيره ربما قبل أن يعمل لنفسه .

تربية الأعماق هى الأساس الوطيد للسلوك الخير فى المجتمع ، وهى الشرارة الأساسية لتقدم أى مجتمع ، وبدونها لايمكن أن يحدث تقدم ، حتى لو ملك هذا المجتمع كنوز الأرض ، واستحوذ على ما فوقها وما فى باطنها ، لأنه لن يحسن التصرف فيما يملك إذ يتصاعد من داخله دخان السفه الأسود يطمس عقله ، حاجبا التفكير السليم .

تربية الاعماق تؤدى بالضرورة إلى تفكير خلقى وتفكير علمى سليمين ، ذلك أنها بالضرورة ترفع الإنسان من هوة الأنانية والأثرة وحب الذات إلى جنة الغيرية وحب الآخرين ، والعمل للجميع . ذلك لأن الفرد الإنسان عندما يفكر فى غيره يتخلص من أهم مسببات التفكير اللا أخلاقى ، ذلك الذى يدعو إلى أن يقول الفرد دائما (أنا وحدى ... وأنا أولا) . المأساة الأخلاقية التى تعيشها بعض المجتمعات أساسها فساد الأعماق. وبالتالى ضياع التفكير الأخلاقى ، وانحراف التفكير العلمى إلى مسارات الشرور والآثام والضياع .

إذا تساءلنا عن الأسباب الحقيقية لما يعانيه مجتمعنا من بعض السوءات كالتسيب والانحرافات والسرقات ... إلخ والجرائد تكتب كل يوم عن هذا وذاك والفضائح فيها لاتنتهى، وفى كل صباح نجد دائما الجديد من هذه المخازى المؤلمة للنفس، ولكنها موجودة ، وما ينشر جزء قليل جدا مما ضبط ، وما ضبط قطرة صغيرة فى سيل الذى لم يضبط . إذ أن سوء حظ المقاول أن عمارة تهدمت فانكشف أمره ، ولكنه غش فى عمارات أخرى كثيرة ، ربما بدرجات أقل فلم تقع ... ولكنه غش أى سرق ، أى أن أعماقه سولت له جرما وخطأ ليكسب هو حتى لو مات غيره تحت الأنقاض .

تربية الأعماق من أجل الأخلاق ...

هى عملية تحتاج لمجهود غير عادى، ولكنه ممكن وممكن جدا إذا صدقت النوايا ،

وإذا قلت العفويات التى تصدر من ذوى الآراء السطحية والذين يدعون العلم والمعرفة، وقد يحفظون بعض العبارات ويرددونها ، ولكنهم أقرب إلى ظلام الجهل منهم إلى نور المعرفة والحق . وهذه المعرفة لا تعنى مجرد أن يعلم فرد أن السرقة حرام ، ولكنها تعنى السلوك الحق فلا يسرق ... كل الذين يسرقون يعرفون أن هذا حرام ولكنهم يرون أنها «شطارة وفهلوة» .

كتب بعض الناس عن النظافة فى الصحف ... وقال قائل : يجب أن نجمع الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تحث على النظافة ونطبعها فى كتاب وتوزع على الناس حتى تنظف المدن والقرى ... ونقول لهذا القائل لذلك الاقتراح ... إن كل هذا جميل ومطلوب . إن كل مؤمن يعرف تماما أن النظافة من الإيمان ، أى أنه لكى يكون مؤمنا حقا يجب أن يكون نظيفا وما حوله أيضا نظيف ، ومع ذلك فالحال كما نرى ...

مجرد المعرفة لاتعنى السلوك .

المعرفة ضرورية للسلوك ، ولكن يجب أن يقتنع الفرد بما عرف ، وأن يتغلغل إلى أعماقه فتتشرب هذا الاقتناع ، لتكون جزءا من نسيج تكوينه الداخلى ، وتسرى كالدم فى عروقه حتى يصل إلى الدرجة التى يسلك السلوك الصحيح دون تفكير ، لأنه صدر من أعماق أخلاقية فى أصالة . هذا الكلام يعنى أننا لو أردنا حقا أن ننظف مدننا وقرانا وبلدنا ... فليس بترديد عبارات ما ، وتعليق ملصقات فى الشوارع وعلى المبانى ، وإسداء النصائح على شاشة التليفزيون بين الفقرات ، ورسوم ساخرة فى الصحف والمجلات ، وإنما بالاقتناع الحقيقى الأصيل عند الأفراد بأهمية النظافة . وهذا لايتأتى إلا إذا ضربنا فى الأعماق ، أى خاطبنا داخليات الإنسان ، خاصة فى بواكير الطفولة حيث تتكون الاتجاهات .

ولا يكفى مطلقا أن يعرف الفرد أهمية النظافة وأن يقتنع بهذه الأهمية ، ولكنه فى أعماقه كون عادات واتجاهات يصعب عليه لمجرد المعرفة والاقتناع أن يتخلص منها ، إذ إن غالبية الموظفين يعلمون أنهم يقبضون مرتباتهم لقاء واجبات ، عليهم القيام بها وبعضها مرتبط بخدمات الجماهير ... هم يعرفون هذه الخدمات والواجبات ومقتنعون بها ، ولكنهم سلبيون بمعنى أنهم يأخذون حقوقهم ولا يؤدون واجباتهم . لماذا هذا ؟

أشياء ما فى داخل الإنسان فيها عفن وعطن ، وكل الفساد الذى يستشرى مع الأيام ، والذى تؤكده الأحوال التى وصل إليها المجتمع من تسيب وفساد وانحلال أخلاقى من البعض ... والمصيبة أننا - فى غالبيتنا - نشكو ونحكى الحكايات ونروى الروايات ، ونتنهد ونتحسر ، والغالبية يعرفون وهم مقتنعون ولكنهم فى نفس الوقت هم على الأرض مفسدون ، وفى أداء الواجبات متسيبون ، وفى المطالبة بالحقوق ملحون . ربما كان أكثر الناس كلاما عن الفضيلة أشدهم إمعانا فى الرذيلة .

تربية الأعماق هى تربية الأخلاق التى تتحكم فى سلوك الفرد إزاء ربه خالقه ، ومع نفسه ، ومع غيره . إذا أطاع المخلوق خالقه ونفذ أحكامه وأوامره فهو مصلح لنفسه وأيضا محسن لغيره ... الدين المعاملة .

والقصد أن يتعامل الإنسان بوحى من ضميره وإحساساته الداخلية عن رضى كامل ، أى تخرج تصرفاته من أعماقه ، وتحقق وتطابق أعماله أقواله ، وتتنفذ وعوده فى استمرارية لاترتبط بمواقف معينة تحقق مصلحة ذاتية له مثلا ، وإنما هى موجودة فى سلوكه دائما ، حتى لو اصابه منها بعض الضرر .

إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة ، وصلاح وإصلاح ملايين أفراد المجتمع يبدأ بفرد وبمجموعة صغيرة تؤثر فى الغير ، وتبدأ رحلة الأعماق فى خطواتها المتئدة فى إيمان الواثقين ، ورغبة المصلحين نحو تقدم منشود للمجتمع ، طال اشتياقه إلى أن يحقق مكانه تحت الشمس .

استراتيجية

وقد يتضح الأمر فى جلاء يعبر عن رأى المؤلفين ، إذ نحن أمام تخير استراتيجية معينة ، وصولا إلى صلاح الأفراد ومن ثم إلى تقدم المجتمع . وعندما نقول صلاح الأفراد فلا نعنى أن الكل محتاجون للإصلاح ، ولكن نعنى نتاج أعمال جزء من أفراد هذا المجتمع أساءت إليه إساءات بالغة . ونقصد هنا بالاستراتيجية ذلك المنطلق الذى ننطلق منه لعملية ما ، ونحن هنا أمام أمرين يمكن الاختيار من بينهما ، أو يمكن تنفيذهما معا ، وقد يكون فى هذا خير ... والله أعلم ، إذ ليس تحت أيدينا دراسات علمية يمكن الاستناد إليها .

والفكرة مؤداها إعادة تربية الراشدين بصورة ما ، وبأشكال ما . وبمناهج ما ، وبإجراءات ما ، حتى يمكن أن تنفذ سهام هذه التربية إلى أعماقهم ، ثم تتمثل فى سلوك جديد يسلكونه يتفق مع الأخلاق الواجبة لأفراد شعوب تروم وتتطلع إلى التقدم . وهذا اختيار .

أما الاختيار الثانى أو الاستراتيجية الثانية فمؤداه نظرة جديدة فى ثوريتها نحو تنشئة أطفال ما قبل المدرسة الابتدائية بالدرجة التى تكثف فيها الجهود لتضرب السهام فى أعماقهم ، فى هذه المرحلة الطفولية من أعمارهم ، مكونة الاتجاهات الأخلاقية المطلوبة ، حتى يصير الواحد منهم نموذجا يحتذى ... أى تكوين الطفل المعلم .

ويرى المؤلفان أن الموقف فى مجتمعنا يتطلب تضافر كل الجهود ، إذ أن الحريق يطفأ بماء عذب وماء كدر وبوسائل كيميائية أخرى . وعلينا أن نلهث وراء عمل مخطط مدروس بوعى علمى ، وأن نبعد عن تلك الشعارات الجوفاء التى أصبحت لاتغنى ولاتساوى ثمن الورق الذى تكتب عليه .

لاضرر ولا ضرار فى أن يسير الاختياران أو الاستراتيجيتان جنبا إلى جنب ، فإعادة تربية الراشدين ممكنة الحدوث وإن كانت إجراءاتها غاية فى التعقيد والصعوبة ، وتقف أمام نتائجها علامات استفهام لا حصر لها ، لكن المحاولة جديرة بأن يبذل فيها جهد ، وقد تحدث معجزة لاندرى كيف تحدث ولكننا نرجو أن تحدث .

أما الاختيار الثانى وهو يتناول أطفال ما قبل المدرسة ، فهذا موضوع كتابنا . وقد سبقتنا أمم أخرى فى هذا المضمار وكانت النتائج مشجعة ، وهذا ما يدعونا إلى المحاولة الجادة المخلصة على الرغم من :

١- اختلاف البيئات والثقافات بما فيها من مستويات اجتماعية وثقافية واقتصادية قد تلعب دورا لا نقلل من أهميته .

٢- وجود تشريعات ترتبط بسياسة الدولة العليا ، وهذا خارج نطاق قدرة المؤلفين ، ولكنهما يفكران - وهذا من حقهما - تفكيرا فى فلسفة واستراتيجية التربية لمجتمعنا .

مرة أخرى .. يكون التكرار لمزيد من التأكيد أن الاستعانة بخبرات مجتمعات أخرى مضت أو هى حاضرة فى تربية الراشدين والأطفال هو واجب لكل من يفكر تفكيرا علميا رصينا آخذا فى الاعتبار ظروف مجتمعنا ، وأن أفراد مجتمعنا لايقلون فى قدراتهم وإمكاناتهم عن غيرهم فى مجتمعات أخرى تقدمت فى ازدهار ، ولكنهم يحتاجون إلى التوجيه السليم . ولدينا مثال رائع فيما حدث فى ترميم قلعة صلاح الدين وانتهت مرحلته الأولى فى صيف ١٩٨٣ . التوجيه الرشيد فجر الإمكانات الكامنة عند بعض الشباب ... أعطيت لهم الفرصة فاستيقظت كنوز الثقة عندهم بعد نعاس طويل ، حجب شمس تطلعات الإسهام فى بناء المجتمع ، وانبثقت طاقات تحمل المسئولية فى لهفة ورجاء العمل طال شوقهم إليها ... أحس كل شاب وشابة منهم أنه يعمل فى جزء من أرض وطنه ، يعيد بناءه وترميمه بدلا من استجداء أعمال هزيلة فى

دول أجنبية مست كرامتهم وقللت من كبريائهم . ما أحوج الكثير مما هو موجود فى المجتمع إلى إعادة البناء والترميم والإصلاح .

ويرى المؤلفان أن فى إعادة تربية الراشدين خيرا وهو أمر مطلوب ومرغوب فيه. ولكنهما لايتطرقان إلى هذا الموضوع فى كتابهما هذا ، وإنما همهما الأول والاساسى هو طفل ما قبل المدرسة .

وإلى محاولة بناءة لأعماق هذا الطفل ننطلق مع القارىء ...

كيف يمكن أن ننشىء أطفال الاجيال القادمة على الحياة فى المجتمع ، وتجرى فى عروقهم دماء الانتماء والولاء لهذا المجتمع ... متشربين بكل الصدق معنى الواجب والمسئولية والعمل للغير والبعد عن الأنانية والفردية ؟ لابد إذن من سياحة بناءة إلى أعماق هؤلاء الأطفال فى محاولة لتكوين الانتماء والولاء للبناء .

هذا رجاء والله المستعان .

إذ إن هذه التربية الممتدة إلى غور الأعماق لتكوين الأخلاق فى أصولها الحقيقية والبناءة للفرد كفرد وكمسهم مع غيره فى بناء مجتمعه ورفاهيته إنما تعنى بالدرجة الأولى أن هذا الأساس الرصين ، هو المفجر الحقيقى لعناية الفرد بكل ما يرتبط به وبغيره (المقصود بما يرتبط به أى ما يفيد صحته . وما ينمى جسمه مطيعا لأوامر ربه المنزلة ونصائح الراشدين الحكيمة التى تعرف أكبر مما يعرف هو . وهذا ما نطلق عليه اسم التربية الجسمية . ثم هو مستجيب - فى رضى وقناعة - للتوجيهات التى توجه إليه من الكبار فى شتى أنواع التصرفات الاجتماعية ، ومحسن سلوكه إزاء المواقف التى سيتعرض لها ، ومتلق إجابات مقبولة عن تساؤلاته المعرفية ، ومستجيب لما يتعرض له من مثيرات تنمى قدراته العقلية التى ينظمها له الكبار الفاهمون لدورهم فى تربية الصغار .

والقصد هنا واضح قد لايحتاج إلى تفسير ، فعندما ينشأ الطفل من أعماقه على أسس خلقية رصينة فى أصالتها احترام الكبار وأولى الأمر ، فى هذه المرحلة الغضة من العمر ، فتنبثق ينابيع مؤدية فى سريانها إلى تنمية جسمية وعقلية واجتماعية ووجدانية مقبولة .

إذ لاخير يرجى فى محاولات ومحاولات طويلة شاقة لإثناء أطفال عن سلوك غذائى غير مرغوب فيه ، وهم معاندون لأنهم لم يربوا فى داخليتهم على الاحترام والانصياع لرأى وأوامر من هم أكبر منهم ويرومون مصلحتهم .

ولا جدوى مطلقا من محاولات كثيرة لأن يحب الطفل غيره من الأطفال ، وأن يشاركهم فى العمل ولا يستأثر به وحده ، ولا يكون أنانيا محبا لنفسه وذاته ناسيا غيره ، طالما أن أعماقه لم تنفذ إليها السهام الواجبة . حتى أن المشاهد فى أحايين كثيرة عدم جدوى العقوبة البدنية التى تقع على الأطفال المشاغبين ، وعن السلوك السليم مارقون ، وعلى سلطة الكبار متمردون وللأوامر رافضون ... ربما كان العقاب البدنى مثيرا أكثر للرفض والتمرد لأن وهج وشعلة التأصل فى الأعماق غير موجودين ... والعيب فينا نحن الكبار .

والتربية هى عملية بناء الأخلاق ، وأساسا فى الأعماق .

هذا المجتمع النامى !

نحن فى مجتمع ما قبل التصنيع ... وكفانا كثرة الحديث عن قيمنا الروحية وقيم الغرب المادية ..

والحقيقة أن قيمنا الروحية قليلة وتقدمنا المادى أقل ...

طبول جوفاء وتصريحات تطالعنا بها الجرائد وأجهزة الإعلام ... ونتحدى ... نفتح أية جريدة فى أى يوم تخلو من جرائم الموظفين العموميين ، ومن السلبيات ...

ومن التصريحات ومن الوعود الكثيرة جدا ... وكلنا نشكو ونشكو ... وهذا دخان فى الهواء .... أما العمل البناء فقليل شحيح صادر من بعض النفوس المخلصة المؤمنة والمنتمية فى ولاء للوطن ... والذى أعطانا الكثير ، وأعطيناه أقل القليل .

إذ إن الشعار هو (أنا .... وحدى فقط) .

لابد لنا من الاعتراف بأن تغييرات كثيرة قد طرأت على المجتمع وظروف الحياة فيه ، ومجتمعنا تجاوزا نطلق عليه اسم مجتمع نام ، أى يحاول أن ينمو ، أو فى طريق النمو قياسا إلى مجتمعات أخرى نمت بالفعل ، وربما تجاوزت هذه المرحلة إلى أخرى أكثر تقدما .

ولابد لنا من الاعتراف بأن الطفل ككائن بشرى عليه أن يكون متصلا دواما بالكبار وبالصغار ، حتى يمكن أن يكون إنسانا يحيا لا مجرد أن يعيش فى المجتمع . وإذا كان هذا الاتصال ضروريا ولازما فسوف تقفز إلى الشفاه مجموعة تساؤلات ترتبط بنوع وكم وكيف هذا الاتصال . وقد تتحكم الظروف الاجتماعية وربما أيضا الاقتصادية فتحدد إمكانات هذا الاتصال الاجتماعى ، وفرص حدوث عدوى اجتماعية مرغوب فيها ، فمثلا قد يكون الوالدان غير متعلمين ، ويكون الطفل واحدا بين عدد من إخوة وأخوات له ، والأم مطحونة فى أعمال البيت ، أو فى مساعدة على كسب الرزق وتدبير مال المنزل ، والأب غارق فى عمله وجهله ، وربما شحيح فى ماله ، قليل الصلة بطفله .

وقد تظهر الصورة شاحبة هزيلة فى بؤسها ، ولكنها حقيقة حياة ملايين من الأسر التى ينمو أطفالها وغالبا ما تتكون لديهم اتجاهات وعادات وقيم هى غير المطلوبة لمجتمع عليه أن يسابق الزمن ، متخطيا سنى التخلف إلى بدايات طفيفة للتقدم.

والسؤال الذى يفرض نفسه : هل الفقر هو سبب عدم تكوين قيم خلقية نبيلة عند الأطفال ؟ أم أنه الجهل ؟ أم أنهما معا ؟ أم أن لا هذا ولا ذاك ؟ .

ليست تحت أيدينا نتائج دراسات علمية يعتد بها ، حيث يمكن أن نعتمد عليها فى إجابة واضحة ، ولكن الشواهد الشخصية (إذا جاز لنا الأخذ بها علميا) تبين أن بين أفراد أسر فقيرة ينشأ أطفال متحلون بقيم أخلاقية نبيلة ، ونسمع ونقرأ عن شباب نشأ فى بيئات غنية ومتعلمة وهو فاسد فى أخلاقه . ولا يمكن إجراء عملية تعميم أو إصدار أحكام بهذا الشأن ، ولكن يظل الفرض قائما بأن تعرض الأطفال فى طفولتهم إلى مثيرات ومؤثرات خلقية حازمة قمين بأن ينشئهم نشأة ذات قيم يتطلع إليها المجتمع بكل الشوق . والفرض كما هو واضح مركب من مجموعة قضايا ، قد يحلو للبعض أن يجادل فيها قبل أن يجادل فى الفرض ذاته ، وهذا حق كما أن من حق المؤلفين وضع هذا الفرض ، مذكرين أنه ليس مسلمة .

ولابد لنا إذن من أن نوجه أنظارنا قبل بيئة تعد وتجهز ليحيا فيها أطفال ما قبل المدرسة حتى يهيأوا لما نطلق عليه التعليم الابتدائى أو الحلقة الأولى من التعليم الأساسى أو أية أسماء أخرى . ومن الغريب أنه كان بمصر فى وقت مضى نوع من (التعليم) تلقاه أطفال فى سن الرابعة والخامسة والسادسة ، وهيئوا لدخول المدرسة الابتدائية التى فتحت أبوابها فى ذلك الوقت لسن السابعة . وكان هذا صالحا وقتئذ ، أملته ظروف معينة أوجدت المدارس الأولية والكتاتيب ، وفى بيئات معينة أوجدت رياض الأطفال . لكن هذا تاريخ ومضى ، وصار عندنا تعليم ابتدائى ابتداء من سن السادسة .

لماذا تدق الأجراس ؟

قبل أفراد الشعب منذ سنوات مضت اختراع مكاتب التنسيق ، وعملها توريع خريجى الثانوية العامة على الجامعات والكليات . وأصبحت أخبار هذه المكاتب التنسيقية تحتل مكانة مرموقة ومنتظرة ومطلوبة فى وسائل الإعلام . وقبل هذا لأنه قيل ليس فى الإمكان أبدع مما كان . لكن ما يثير دهشتنا حقا أن تكون هناك مكاتب تنسيق لدخول الأطفال فى دور الحضانة أو رياض الأطفال أو مدارس اللغات ... وتألمت اشتراكية التعليم باكية . وما كان عليها أن تبكى ولا تتألم ، فما زالت الأجراس فى المدارس الابتدائية تدق ، ويدخل المدرسون الفصول التى امتلأت عن آخرها بمن عليهم أن يتعلموا ، ولكن لاتدرى بالضبط هل تحدث عملية تعليم ... وإن كنا ندرى كثيرا من الشىء عما يحدث داخل تلك الفصول فى الفترة بين دق الجرس إيذانا بابتداء ودقه مرة أخرى إيذانا بانتهاء ... وطوال اليوم تدق الأجراس كأنما هناك شىء يحدث فعلا ، أو لتقول لنا أن تربية ما واقعة بدليل هذا الانتظام فى الدق ...

ويدق جرس الباب فى بيت ما ، ويدخل طفل أو تلميذ أو طالب يتلقى درسا خصوصيا ، أو يدخل مدرس يلقى درسا خصوصيا ، وهذا اعتراف صريح بأن العملية التربوية التعليمية التى تدق لها الأجراس فى المدرسة غير كافية بالمرة .

والفرق بين صوتى الجرسين واضح ، فأحدهما خفيف لطيف ذو رنة جميلة ، وهو ضعيف فى صوته ، والآخر جبار مدو وصوته جهورى يصم الآذان . والغريب أن صاحب الصوت الخافت له الأثر الواضح والفعالية فى الجانب المعرفى فى العملية التربوية . إذ أظهر الجرس الصغير قدرة المدرس التى لم تظهر بالصورة المطلوبة ، وأمامه عدد من الأطفال فى حجرة ضاقت بهم ، ينال الواحد منهم جزءا من أربعين أو خمسين مما يناله طفل الدرس الخصوصى

لكن على اشتراكية التعليم ألا تتألم وألا تبكى فكل شىء بخير طالما الأجراس تدق ، وطالما أيام العام الدراسى تنكمش فى خجل تاركة الأطفال إلى الطريق والرفاق أكثر من نصف العام الذى هو أثنا عشر شهرا .

لكن الأطفال فى المدرسة الابتدائية ينقلون من صف دراسى إلى آخر وإلى آخر ، وبعضهم لايعرف بعد كيف يكتب اسمه ، وبعضهم إذا ترك المدرسة ارتد إلى الأمية ، ثم لايذكر عن تلك السنوات إلا ربما دق الأجراس التى أحست وهى من حديد صلب أنها كانت فى زمان مضى ... كانت ... أما اليوم فهى تؤدى عملا رتيبا متسائلة : ولماذا أدق ؟ ولكن عليها أن تدق .

الاهتمام الواضح فى المدرسة الابتدائية هو فى صف الجانب المعرفى من العملية التربوية ، ونحن لانقلل مطلقا من هذه الأهمية ، ولكن نؤكد أن العملية التربوية أجل وأسمى وأعمق فى أهدافها من مجرد تلقين المتعلمين بعض المعلومات وجلوسهم أحيانا لامتحانات ، وأمام نتائجها مجموعة تساؤلات ، وربما يمتحن الأطفال فى الأخلاق وفى الدين ، وربما يغشون وهذا تأكيد بأن مجرد المعرفة لاتعنى السلوك . لكن المدرسين والمدرسات سمعوا الأجراس تدق فدخلوا الفصول ثم خرجوا ، ثم طويت أسابيع العام الدراسى وربما كانت النتيجة ٩٩٪ نجاح . نجاح فى أى شىء ؟ بأية وسيلة ؟ ولأى هدف؟ يؤمن المؤلفان بأن كل درس هو فى الأصل درس أخلاق أولا وأساسا ، ولكن كيف يتم ذلك فى مدارسنا الابتدائية وظروفها معروفة ؟ .

من الممكن أن تكون هناك تربية خلقية ممتدة من فترة سابقة ، نتناول فيها التعامل مع أعماق الأطفال بالمعنى الذى أشرنا إليها سابقا عن مفهوم التربية فى هذا الفصل . ولايجب أن نركن إلى مشجب نعلق عليه عدم النجاح فى التكوين الأخلاقى لأطفالنا ، وهو مشجب (الظروف الصعبة التى تعانى منها المدارس) .

عواصف الندم

تتضح الضرورة الملحة فى ضراوة شديدة لإعادة النظر جذريا فيما يدور فى مؤسسات تربية الطفل فى مرحلته الأولى قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية لما يدور فى بعضها من فوضى تربوية ، وصلت إلى حد تكليف الأطفال بواجبات منزلية فى الحساب والكتابة مثلا . ونتساءل أين يذهب الطفل بعد حضوره رياض الأطفال ووصوله إلى سن السادسة ؟ ، سيلتحق بالصف الأول الابتدائى ويجلس مع غيره من الأطفال الذين لم يلتحقوا بالرياض . وفى هذا الصف يتعلم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب. ماذا سيفعل خريجو رياض الأطفال ؟ إذا ساروا مع بقية أطفال الصف فسيكون الموقف مشحونا بالملل والضيق ... و ... و .... إلخ ، مما نحن فى غنى عنه .

هذا يعنى أن ما يدور حاليا فى رياض الأطفال يجب أن يخضع للتقييم العلمى، وبأسرع ما يمكن قبل أن تدهمنا عواصف الندم .

ومن حقنا أن ندلى برأينا فى هذه المسألة دون حساسيات أو انحيازات ، إلا من أجل خير الوطن ، والأمر إن ذكر الآن على أنه رأى نقتنع به اقتناعا كبيرا على المستوى النظرى .. فإنه يحتاج إلى بحوث علمية لتأكيده أو نفيه ، وربما كان هناك بديل يكون أكثر صلاحية . قبل أن ندلى برأينا فنذكر الآتى من التساؤلات :

- هل يحتاج القدر المقدم من المادة العلمية لأطفال المدرسة الابتدائية فى مصر (من سن ٦ إلى ١٢ سنة) إلى ست سنوات دراسية ، أم إلى أقل من هذه المدة ؟ قد تكون أربع أو خمس سنوات كافية .

- هذا التساؤل مرتبط بسابقه : ماذا يحدث لو تغيرت طرق التدريس وتنظيمات المنهج ومحتواه أيضا ؟ وماذا يكون الموقف لو طال العام الدراسى شهرا مثلا ؟

- أين هى التربية الخلقية بأجل وأعمق معانيها ، إذ أنها تتمثل فى كل درس وفى كل نشاط ، وفى كل صغيرة وكبيرة داخل المدرسة ، وبين كل أفراد الأسرة المدرسية ؟ ... فقط درجنا على اعتبار المسألة منتهية عند دروس التربية الدينية . النتيجة كما نراها ونلمسها جميعا لاتحتاج إلى تعليق .

نحن لانتحدث من أبراج عاجية أو عالية ، بل إن أقدامنا مثبتة فى صلابة على أرض الواقع الذى نعيشه ، واحتكاكنا الفعلى بالحقل التربوى رصين وممتد فى اتساع سواء بالعمل فعلا ، أو بالدراسة محليا وخارجيا ، وقد أثرى كل ذلك بالمرور بخبرات العمل مع منظمات دولية وجامعات أجنبية عربية وغربية .

الاقتراح

نقترح أن يكرس الصف الأول الابتدائى لتربية أعماق الطفل ، أى تكون القيم والاتجاهات والعادات التى تنشئه مواطنا خلقيا مؤثرا بإيجابية بناءة فى مجتمعه .

ويرى المؤلفان أن تنفيذ هذا الاقتراح سوف يكون من شأنه تزويد الأطفال بقيم خلقية ، واتجاهات عقلية ، وعادات سلوكية تمكنهم من التعامل فى المحيط المدرسى بدرجة أكثر ايجابية وتفاعلا ، بحيث يمكن لإدارة المدرسة الابتدائية أن تدمج ما يعطى فى ست سنوات ليعطى فى خمس سنوات فقط . والأمر المهم جدا هنا أن الطفل بعد السنة الأولى سوف يكون مستعدا للتقبل السريع للمعرفة والمهارات على المستويين النظرى والعملى ، ومسلحا بالقيم والاتجاهات والعادات التى يتطلبها المجتمع منه .

وفى حالة تنفيذ هذا الاقتراح يكون الصف الأول بمثابة فترة ما قبل المدرسة الابتدائية ، وقد يرى البعض أن تضم هذه الفترة سن الخامسة والسادسة معا - هذه مجرد اقتراحات لأن السؤال مازال قائما وهو ... إذا كانت هناك رياض أطفال قبل

الدخول إلى المدرسة الابتدائية ويكون فيها - كما هو الحال الآن - تعليم لمبادىء القراءة والكتابة والحساب ، فماذا سيتعلم خريجو هذه الرياض فى الصف الأول الابتدائى ؟

نكاد نشم هنا رائحة العودة إلى ازدواجية التعليم فى المرحلة الأولى ، إذا أراد أولياء أمور خريجى رياض الأطفال أن يلتحق أبناؤهم ، وهم فى سن السادسة ، بمدارس أخرى أكثر تقدما ولها مناهج مختلفة عن المدارس التى هى موجودة حاليا . وهذا أمر لا نقبله ولا نشجعه حتى تتكافأ الفرص ويتساوى جميع الأطفال فيما يقدم لهم لتربيتهم على مستوى الدولة .

ولابد لنا أن نزور مجتمعات أخرى سبقتنا إلى التقدم[١] ، وسبقتنا إلى العناية بتربية الطفل قبل المدرسة لنرى ونفهم ماذا حدث ويحدث ، وقد نأخذ بعض ما عندهم إذا تمشى مع بيئتنا كما نأخذ منه الراديو والتليفزيون والسيارات والفيديو ، و ... إلخ حتى القمح الذى تصنع منه أرغفة الخبز .

ومع أن الاحتراس واجب إلا أننا يجب أن نعترف بأن الكائن البشرى فى مرحلة نمو فى أى مجتمع ما وأى عصر ما ، هو محصلة التكوينات الوراثية والبيئية التى تؤثر فيه وله مطالب نمو معروفة . والملاحظ أن السنوات الأخيرة تشهد اهتماما ملحوظا بتهيئة البيئة المناسبة التى يتحتم أن ينمو فيها الطفل ، وفى هذا خير وفير ، إذ أن الكبار بوسعهم أن يتحكموا فى المؤثرات البيئية ، أما عن المؤثرات الوراثية فالأمر مختلف تماما . وسوف نرى - فى سياحتنا شرقا وغربا فى شىء من العجالة تتناسب مع حجم هذا الكتاب - كيف أن الاهتمام غزير كثير بالبيئات التى يتفاعل معها الطفل وهى البيت والمدرسة والمجتمع . وسوف يكون تأكيدنا الأساسى على دور المدرسة فى تربية الطفل فى الفترة الزمنية التى يتعرض لها هذا الكتاب ، هذا مع تأكيدنا على الدور المهم الذى تقوم به الأسرة خلال هذه الفترة من عمر الطفل وفيما قبلها ومابعدها.

---

(١) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب .

كما أننا سنلمس مع بعضنا البعض الآخر التأكيد البارز على عملية التنشئة الاجتماعية ، ونعنى بها العلاقات بين الطفل وغيره من الأحياء والأشياء ، إذ وجد أن لهذه التنشئة آثارا متغلغلة فى مسار حياة الفرد فيما بعد . ولعلنا بادىء ذى بدء نطلق السهام غائرة إلى منابع السلوك الذى يظهر فى تصرفات أفراد المجتمع فى بلوغهم ومراهقتهم ورشدهم وتمام نموهم . وقد ينبرى البعض مؤكدا إمكان تعديل سلوك الكبار إما بوسائل الترغيب أو الترهيب ، بالثواب أو العقاب . ونحن لانستبعد هذه الإمكانية. ولكن لانتعجل فنصدق حكما بالموافقة عليها . وقد يكون من الخير ذى المفعول المرتقب أن نتوجه إلى اعماق الأطفال فى محاولات مرتبة ومنظمة لتربيتهم فى مرحلة من العمر تستجيب لهذه التربية .

على أن هذه التربية تتطلب بالضرورة تعاونا مع البيت وبالذات الوالدين والإخوة حتى لايكون هناك تصادم غير مرغوب بين ما يتم فى المدرسة وما يحدث فى البيت . وقد يكون من المفيد حينئذ أن يتضمن تنفيذ استراتيجية تربية الطفل قبل المدرسة التوجيهات والتنبيهات اللازم ، والالمام بها من جهة المحيطين بالطفل والمتفاعلين معه فى البيئة المنزلية .

قبس من الأصالة

تدارس معنا هذه الآيات البينات فى شىء من التمعن ، ملقيا أهمية على الجوانب المادية والجوانب المعنوية .

فى حديث لفضيلة الشيخ متولى الشعراوى للأستاذ أحمد زين نشر بجريدة الأخبار بتاريخ ١٩٨٣/٨/١٢ فى صفحة ١٢ تحت عنوان (حمدا لله) .... إن قول الله (الحمد لله رب العالمين) فى فاتحة الكتاب ... جاء بالصفة العامة لله وهى (الربوبية) التى تقتضى الإيجاد من عدم .. والهداية بالقيم ... إن الإنسان إذا أراد

أن يربى ولده ... فإنه لايربيه بالطعام والمسكن والملبس فقط .. ولكن لابد من أن يعطى الأب ابنه قيما إخلاقية .

إذا كان ذلك هو ما يحدث على مستوى علاقة الإنسان بابنه الإنسان ... فما بالنا . ولله المثل الأعلى ... أنه الرب الحقيقى الذى يمد الإنسان بالمادة ... ويمد الإنسان بالقيم .

وكلمة رب العالمين ... كما قلنا .. تفيد أن الله مرب ... وما دام الله مربيا ... فإن تربيته للإنسان تأخذ شكل الإمداد بالمادة وبالقيم .. ويفضل الله ذلك الأمر فى استهلال بعض سور القرآن الكريم بالأمر المادى ... وخص الله أيضا الأمر القيم اللازم لتربية الإنسان فى استهلال بعض السور الأخرى .

فمثلا : يقول الحق فى سورة الانعام :

(الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

هذا حمد على أمور مادية هى السماوات والأرض ... والظلام والنور ... لينتفع بها الإنسان وفق مشيئة الله .. ومع ذلك يشترك فى هذه النعم الجليلة المؤمن والكافر .. لكن المؤمن يتميز على الكافر بأنه يعرف فضل الله .. لذلك يحمده .. حمدا على أمور ونعم مادية .. وبعد ذلك نجد فى سورة الكهف .. حمدا لله على القيم وحدها ... فيقول جل وعلا **(الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب .. ولم يجعل له عوجا)** .

فإذا قارنا بين الحمد فى سورة الانعام .. والحمد فى سورة الكهف .. فلسوف نجد أن الحمد فى سورة الانعام هو حمد على نعم مادية ، بينما نجد أن الحمد فى سورة الكهف هو حمد على أمور قيمة معنوية .. هى الهداية بالقرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فى هذا الكتاب شىء من الانحراف عن الصواب ... بل كل ما فيه حق لاريب فيه .

وها نحن أولاء نجد الحمد يختلف أسلوبه فى سورة فاطر .. (الحمد لله فاطر السماوات والأرض .. جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ... إن الله على كل شىء قدير) .

إن الله يصور لنا الحمد هنا بشكل يجمع بين المسائل المادية والمسائل المعنوية .. نحن نحمد الله على خلقه السماوات والأرض ليكون الإنسان خليفة فى ملكوت الله .

ونحمد الله أيضا على أنه خلق الغيب الذى لانراه .. الملائكة الرسل التى يصورها الله كما يشاء .. ويكون الحمد لله فى نفس سورة فاطر نوعا من الشفاء النفسى بالايمان .. فيأتى الحمد لله على لسان المؤمنين :

(الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ...) .

واضح من هذا الحديث الشيق العميق أن أمور التربية تضم جوانب مادية وأخرى معنوية يكمل جانب منها بالجانب الآخر فى تكامل ينشىء الطفل التنشئة المطلوبة . وفى تراثنا فيض معقول تناول بايمان أصول تربية الطفل ، وسوف نحاول أن نتلمس أطرافا من هذا التراث كأمثلة قد تنير لنا بعض الطريق ، آخذين فى الاعتبار ظروف المجتمع الإسلامى الماضى .. ولكن الأمر المهم ما تحويه هذه النبذ من اتجاهات نحو تربية الأطفال . كما نأخذ فى الاعتبار أيضا أن أمور التربية والبحث فيها ينطبق عليها ما ينطبق على العلوم الإنسانية إذ هى واحدة منها ، ولذلك تختلف بطبيعتها عن العلوم الطبيعية التى تبحث فى مسائل ذات طبيعة تختلف من حيث إنها تستمد مادتها من عناصر مادية ومحسوسة ، ويمكن ملاحظتها وفحصها والتحكم فى طرائق تركيبها وعملها مثل موضوعات الضوء والكهرباء والمغناطيسية والجاذبية ... إلخ [١] .

---

(١) محمود قمبر ، ذاتية الطفل والنظرية التربوية فى الإسلام ، مركز البحوث التربوية ، جامعة قطر، الدوحة ، ١٩٨٣ ، ص ٧ - ٨ .

ومن نفس المصدر الذى يتحدث عن النظرية التربوية فى الإسلام يقول الكاتب ... «لم تصل إلينا هذه النظرية فى بنية فكرية كاملة بذاتها اصطلح عليها المربون ، ويمكن نسبتها إلى مصدر واحد ، أو إلى مفكر تربوى معروف ، أو إلى منظر فلسفى بشر بها وروج لها ، أو إلى هيئة تربوية اشتغلت بها ... لقد جاءت إلينا فى شكل معان أولية مستلهمة من كتاب الله وسنة رسوله ، وقد وقف أمامها نفر من العلماء المسلمين بالبحث والنظر فحولها إلى مفاهيم متوافقة ومتآلفة، تكون فيما بينها مبادىء النظرية التربوية الخاصة بتربية الطفل المسلم . فهى إذن نظرية عامة تمثل جملة الأفكار الشائعة التى زكاها الدين والعقل والخبرة الإنسانية حيث تواترت بصحتها مواقف المربين، وكانت عندهم فى موضوع اهتمامهم على اختلاف عصورهم وبيئاتهم ومذاهبهم».

ويستطرد الكاتب شرحه لأصول هذه النظرية قائلا «ولسنا نقلل من قيمة هؤلاء المفكرين والمربين إذا قررنا أنهم لم يسبقوا إلى وضع نظريات مبتكرة وجديدة ، سمع بها العالم لأول مرة كأفكار وحقائق . إن التربويين المسلمين الذين عقلوا نصوص الوحى ، وبحثوا عن الحكمة فى كل مكان ، تملكوا نظريات واستخدموها ، وربما استمدوا ما يدعم أصولها من ثقافات أجنبية ، لكنهم أخذوا وأضافوا ، نقدوا وحللوا ، وفق فلسفة دينية حضارية آمنوا بها ومشوا مع تعاليمها ، فكانت فى النهاية نظرية إسلامية لحما ودما ، فكرا ومنهجا» .

وقد حث الإسلام على العلم والتعليم ، فقد وردت إلينا أحاديث نبوية شريفة، تؤكد حرص الإسلام على الاهتمام بتعليم الابناء منذ الطفولة ومنها :

قال صلى الله عليه وسلم «لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين» .

وقال كذلك «الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم» .

وقال عليه الصلاة والسلام «لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله» .

وقد عرف من المصادر التاريخية أن الأطفال كانوا يتعلمون أول الأمر فى المساجد ، ثم نهى عن هذا وفتحت لهم كتاتيب ، حيث إنه كان من عادة الأطفال العبث بجدران المساجد بالكتابة أو نحو ذلك مما هو متواتر عن سلوك الأطفال كالجرى والقفز والاستمتاع بحرية فى الحركة . وقد اعترفت المجتمعات الإسلامية بحاجات الطفل هذه فلم تعمل على كبتها أو منعها ، بل أطلقت للأطفال هذه الحرية الحركية ، وكان الآباء يأخذون أبناءهم الصغار إلى أماكن فيها مرح وغناء ولعب ولهو برىء فى الأعياد والأفراح . وكانت لهم ألعابهم الخاصة بهم فى الشارع مستخدمين الحجارة والرمال وسعف النخل وربما اندمجوا فى بعض المسابقات . وهذا ما كانت تمنحه ظروف البيئة وإمكاناتها فى ذلك الوقت من التاريخ . ولكن الأمر المهم هنا اعتراف التربية فى تلك المجتمعات الإسلامية بحرية الأطفال فى الحركة واللعب واللهو البرىء .

وليس من قبيل المقارنة أن ترسم صورة كتابية عما ورد إلينا من تقرير عن التعليم فى دار حضانة بإنجلترا فى عام ١٩٠٥ جاء فيه .. حشر ما يربو على مائة طفل فى حجرة كبيرة وقد جلسوا على ألواح من الخشب وتدلت سيقانهم ، معلقة بين اللوح وأرض الحجرة ، وانتصبت ظهورهم لاتستطيع الانثناء إلى الأمام أو الميل إلى الخلف ، إذ إن هذه الألواح لم تكن لها ظهور يستند إليها الأطفال . جلس الأطفال وهم مكتوفو الأيدى حتى لايكون هناك طفل عابث يحرك ذراعه يمنة أو يسرى ، وحتى تكون العيون شاخصة إلى المدرسة المتجهمة الماثلة أمامهم ، وهى تنطق حرفا مشيرة إلى سبورة عليها رسم الحرف ويكرر الأطفال اسم الحرف . وقد عدت كاتبة هذا التقرير مرات التكرار فبلغت لحرف واحد مائة وعشرين تكرارا ، والأذرع مطوية على الصدور، ولايستطيع طفل أن يغافل المدرسة فيشذ عن هذه القاعدة أو يعصى أوامرها التى تطلبت النظام الصارم ، ومنه وضع الطفل على ذلك اللوح . وكانت نوافذ الحجرة عالية

جدا حتى لايرى الطفل ما يدور بخارجها ، مما يشتت انتباهه ويلهيه ربما للحظات عن هذا التكرار والتكرار ....» [١] .

وكان هؤلاء الأطفال فى الثالثة من أعمارهم !!

قلنا إننا لسنا فى معرض المقارنة وإلا كثر الكلام ، فقد جلس الأطفال فى الكتاتيب وفى نفس السن والتاريخ جلسوا مفترشين الأرض على حصير يكاد يبلى من كثرة الاستعمال ، وفى نفس الوقت عرف أطفال آخرون المقاعد الملائمة والمعاملة الإنسانية سواء فى الغرب أو فى مجتمعات إسلامية ، شهدت تقدما ملموسا كما حدث فى مصر فى القرن التاسع عشر .

وعن تربية الطفل فقد كان هناك إجماع فى المجتمعات الإسلامية - فى العصور الوسطى - على ضرورة الاهتمام بالتعليم فى الطفولة ، حتى يبدأ فى تكوين الطفل قبل أن تتمكن منه الاهواء والشهوات كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته ، مضيفا أن هذا التعليم من شأنه إذا تم فى أصاغر العمر يكون أشد رسوخا .

وذكر بعض المراجع العربية الإسلامية أنه كان للأسرة دور ملحوظ فيما نطلق عليه اليوم تعبير التنشئة الاجتماعية حيث كان الحرص واضحا ومؤكدا على إكساب الطفل العادات التى تتطلبها التربية السليمة لمجتمع إسلامى ، يستمد أوامره من أحكام الدين الحنيف . فنقرأ عن عادات مرتبطة بسلوك الطفل فى تناول الطعام والتعامل مع غيرهم سواء من الأقارب أو غيرهم ، وكيفية الحديث وآدابه والاستماع واحترام كلام الآخرين كبارا كانوا أم صغارا . وننتظر أن تكون هذه التوجيهات الأسرية متناسقة ومتفقة بين مختلف الأسر ، حيث إن المصدر واحد والمعايير المطلوبة للسلوك

(1) Board of Education, Report of Children Under Five Years of Age in Public Elementary Schools by Women Inspectors, Parliamentary Papers, 1905. In. M. Huges et al, Op. Cit. pp. 209-210 .

من المجتمع متفق عليها . ولذلك كانت التربية فى تلك المجتمعات الإسلامية مؤدية إلى تحقيق أهداف واضحة ، والوصول إليها ممكن طالما هيئت الإمكانات اللازمة .

ومن الملاحظ تأكيد التربية فى المجتمعات الإسلامية على الفضيلة التى يجب أن يعتاد الأطفال فى بواكير الطفولة فهمها وهضمها وامتصاصها حتى تتبلور فى سلوك أخلاقى مرغوب فيه .

قال النبى عليه الصلاة والسلام «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

وقال شوقى :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

* * *

لن يكون هناك تقدم لمجتمع إلا إذا تحلى أفراده بالأخلاق القويمة ، وكان سلوكهم نابعا منها فى السر والعلانية عند الفرد وعند الجماعة .

أجيال ومسئوليات

كيف نحكم على مستقبل مجتمع ما ؟ كيف يمكن التنبؤ بصدق بمدى نجاح هذا المجتمع فى استمرارية ازدهاره وتحقيقه لأهدافه فى رفاهية أفراده ومجموعاته ؟ يعتمد بعض العلماء فى الإجابة عن السؤالين السابقين على عدة مؤشرات أو محكات منها : نمو معدلات الإنتاج القومى ، تنظيم النسل ومعدلات المجتمع ، مدى الالتزام بتنفيذ الواجبات المنوطة بالمواطنين ، بيانات عن الأحوال الصحية والجسمية والنفسية لأفراد المجتمع ... إلخ . ومع اعترافنا بأهمية كل هذه المحكات والمؤشرات وضرورتها ، ونحن فى نطاق نظرة مستقبلية لمجتمعنا ، نعتمد على ما يمكن أن يتطور إليه حاضرنا ، نرى أن مؤشرا مهما يلح فى أن يحتل مكان الصدارة وهو :

«مدى إيمان جيل ما بأنه مسئول عن الجيل الذى يليه» بمعنى أن جيلا يزرع أشجارا ستكبر بعد سنوات وتؤتى أكلها بعد حين ليستفيد بها جيل لاحق ، وهذا الجيل اللاحق لن يكتفى بجنى الثمرات ولكن عليه أن يزرع أشجارا . إذن فالجيل المربى حقيقيا هو الذى يبنى لمستقبل مجتمعه ، ويكمل مسيرة جيل سابق له ، وفى هذا أخذ وعطاء ، والتنشئة تؤكد على الاثنين ، كما يأخذ الفرد عليه أن يعطى ، وكما أن له حقوقا ، عليه واجبات .

ولكى يتم هذا الإيمان السابق ذكره فيجب أن يحيا الطفل ويحييه مرشدوه فى بيئة ، تتيح لقدراته التى وهبها الله عز وجل له لتفصح عن ذواتها فى الخير المرموق والنمو المأمول فى سلامته وصحته .

إذن .. فإن حكمنا على مستقبل مجتمع ما يتوقف على مدى ما يهيأ لأطفال جيله فى اللحظة الراهنة أو الحاضرة من فرص التكوين الأخلاقى والمعرفى والوجدانى والجسمى ، وهذه كلها تؤهله فى المستقبل للحفاظ على ثقافة المجتمع وتنميتها بكل الوعى الصادق والعمل النشط الفعال ، مستظلا بالتنفيذ الجاد العميق للقوانين الدينية والوضعية ، والتى تؤكد فى صرامة اتجاهات مطلوبة كالتعاون والمشاركة الفعالة والبعد عن الأنانية ...

يحلو للبعض أن يعود بالذاكرة إلى الماضى - التاريخ - ويستجلب منه قصصا وأمثلة يرونها حقيقة قد وقعت ومن ثم أثمرت أعمالا عظيمة . كما يستدعون إلى الذاكرة قصصا وأمثلة أخرى ، يدللون بها على أسباب انهيار حضارات وتدهور أحوال شعوب . وهم يتحدثون عن الازدهار والانحلال ... عن النجاح وعن الفشل .. عن التقدم وعن التخلف .

ويقف الإنسان دائما سيد المواقف وباعثها والمتصرف إزاءها . فالمجتمعات تنمو أو تنحط بأفرادها ، وهم أيضا الذين يكونون الثقافات . وإذا قبلنا تعريف الثقافة بأنها ذلك الكل الذى يتكون من جوانب مادية وأخرى معنوية فى مكان ما وزمن ما ، فإن ذلك يعنى أن ثقافة مجتمع ما تضم مختلف إنجازات وأعمال الأفراد كالمبانى مثل دور العبادة والمدارس والمتاحف ووسائل المواصلات .. الملابس ، إلخ ... كما تضم القيم والاتجاهات والعادات السائدة بين الأفراد . وتختلف الثقافة من مجتمع لآخر ، ومن زمن لآخر ... ولكل مجتمع ظروفه وإمكاناته التى تؤثر فى تكوين ثقافته .

وإذا قبلنا القول بإن الإنسان هو صانع ثقافته ، فيمكن القول بأنه هو صانع التقدم أو المتسبب والمؤدى إلى التخلف . وتؤثر على سلوك هذا الإنسان عوامل كثيرة تبدأ مع بواكير الطفولة فى تصاعد مع سنى عمره . وقد تؤدى بعض هذه العوامل إلى نمو ، أى تقدم . أو إلى نكوص ، أى تخلف ، مع مراعاة أن كل مفهوم يدرك بصورة متفاوتة عند مختلف الأفراد . فالمسألة نسبية .

والتقدم هو الانتقال أو التطور التدريجى الشامل لثقافة ما من حالة إلى أخرى أفضل منها . والتأكيد هنا يتضح فى مجموعة نقاط :

١- حدوث عمليات تحسن فى جوانب الثقافة المختلفة .

٢- وإن هذا التحسن يتم تدريجيا .

٣- إنه يتناول الأشياء المادية والمعنوية على السواء ، علما بأن هناك قيما روحية لها صفات الثبوت ، إذ هى صالحة لكل الأزمنة والأمكنة .

٤- إن الإنسان هو الذى يتسبب فى هذه الحالة التطورية إلى الأفضل .

وسوف نعالج هذه النقاط الأربع فى شىء من التكامل ، إذ إن التداخل بين كل نقطة وأخرى واضح جلى . قد يمكن لأى مجتمع أن يعزز ثقافته بآخر ما توصلت إليه

ثقافات أخرى من اختراعات . وهذا ممكن طالما أن الظروف الاقتصادية تسمح بذلك ، فقد تستورد هذه الثقافة بعض مظاهر التكنولوجيا مثل السيارات بأشكال وألوان ومحركات وطرز تتباهى بها . ولكن كيف يتعامل إنسان هذه الثقافة المستورد مع هذه الآلات وهو حديث العهد بها ، أضفت عليه زخرفا ولكنه فى أحايين كثيرة لايستطيع أن يتخلص من اتجاهات تكونت لديه منذ سنوات ، وقد لا تتناسب مع مفهوم السيارة فى مجتمع متقدم ، نعنى مثلا أن يسابق بها الريح كأنما هو يركب حصانا فى صحراء لاتوجد فيها قوانين مرور بالطبع . وقد تستورد ثقافة مصانع ضخمة ، وترسل أعدادا من المهندسين ليتدربوا على هذه الأجهزة الحديثة فى الثقافة التى أنتجتها . سهل أن يتدرب الفرد ، وقد يكون سريعا فى اكتسابه مهارات يدوية مطلوبة ، ولكن الأمر الصعب يتصل بالقوى البشرية التى ستشغل هذه المصانع ، والتى تعيش باتجاهات ثقافة ما قبل التصنيع ، وكان المفروض أن تتحول اتجاهاتهم إلى أخرى يمكنها أن تتفهم معنى التصنيع . إذ من الصعب أن يقام مصنع ضخم فى قرية ما ليعمل به فلاحون تركوا الحقول ليتعاملوا مع كهرباء ومازوت وتروس ... إلخ . فالملاحظ أن الفلاح يميل إلى العمل الممتد على فترات زمنية طويلة ويحب الاسترخاء ، وربما إغفاءة بعد الظهيرة تحت شجرة وارفة ، ولكن من الصعب عليه أن يعمل طبقا لمواعيد محددة من حضور وانصراف وفترة راحة موقوتة . ثم إن الفلاح إذا عمل مع غيره فعددهم قليل غالبا من الأسرة أو زملائه فى القرية ، وهو يتعامل غالبا مع بعض الحيوانات التى تعمل فى الحقل. أما فى المصنع فالأمر مختلف فى عمل الجماعة ، وفى العلاقة أثناء دوران الآلات وفى اليقظة المتنبهة دائما طوال الوقت . ومع ذلك فيمكن للفلاح أن يتكيف مع المواقف الصناعية الجديدة وإن كان ذلك يتطلب ثلاثة أمور :

١- وجود قيادة واعية لتوجيهه وتدريبه ، مدركة للابعاد الحقيقية لإحداث عملية التغيير عند الإنسان .

٢- احتياج الأمر إلى فترة زمنية ليست قصيرة حتى تتكون اتجاهات لدى الأفراد تتناسب مع الموقف الجديد .

٣- يتطلب الأمر أن تتغير حياة الفرد فى القرية تغييرات ، تختلف عن حياته أيام كان يفلح ويزرع الأرض ويجنى المحصول .

كل هذا يدفعنا إلى التأكيد على أن إحداث تقدم فى مجتمع ما فى ثقافة ما يتطلب أكثر من تواجد الجوانب المادية فى ذلك المجتمع ، إذ كما قلنا فإن أمر تيسيرها سهل ، طالما توافرت ظروف اقتصادية مساعدة . إنما الأمر المهم هو تلك الجوانب المعنوية التى تحرك سلوك الأفراد وهى القيم والاتجاهات والعادات ، وهى التى يمكن أن تحسن الإنتاج أو تضعفه ، تحترم الآلة ، تصونها أو تفسدها ... .

إذن فالإنسان هو ركيزة التقدم .

والتقدم كما بينا هو الانتقال من حال إلى حال أفضل ، ويتم ذلك بالإنسان الذى يجب أن يتغير هو نفسه من حال إلى حال أفضل ...

(إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)

(صدق الله العظيم)

والتربية هى المسئولة عن تشكيل وتغيير الأفراد ومن أعماقهم أولا ، كما أوضحنا سابقا ، فهى التى تكون الرغبة الأصيلة والدافعية عند الأفراد للتشكيل والتغيير . وخير كبير أن يتم هذا فى الطفولة .

فالإنسان والتكنولوجيا هما جناحا التقدم ، وبهما يصير التحليق إلى آفاق غد مرتقب .

ولا نعنى بالتكنولوجيا مجرد أجهزة وأدوات صغيرة كانت أو ضخمة . وليست هى فقط الاختراعات الحديثة مما تذهلنا اليوم ، وقد تصبح فى المستقبل لعب أطفال ..

وإنما نعنى فوق كل هذا التخطيط والتنظيم والاستغلال السليم لإمكانات الإنسان . والتكنولوجيا بهذا المعنى ليست وليدة الماضى القريب ، ولكنها ممعنة فى التاريخ ، وقد مارستها الحضارات الأولى ، واستخدمتها لتزدهر وتنمو بها وبالإنسان فى تلك الأزمنة والأمكنة .

الإنسان ، والتكنولوجيا يصنعان التقدم ، ولا يكفى واحد منهما . ذلك لأن الإنجاز فى الأعمال يتطلبهما سويا . ولا توجد تكنولوجيا بدون مجتمع بشرى ، كما أن المجتمع البشرى يحيا بأنظمة وتخطيط .

كما لايمكن تصور مجتمع ينعزل عن بقية مجتمعات العالم ، ويقفل الأبواب عليه . قد يمكن هذا لفترة زمنية قليلة ، ولكنه سيحتاج إلى الاتصال مع مجتمعات أخرى ، يأخذ منها ويعطيها ، وقد شهد التاريخ تعاونا بين الشعوب والأمم .

إن طفل اليوم هو صانع التقدم فى المستقبل فى المجتمع الذى يعيش فيه . إن نظرة فاحصة إلى شعوب تقدمت ، تكشف عن بناء بمواصفات معينة لأطفال تلك الشعوب ، وإعادة بناء للرجال والنساء . والدول المتقدمة تزداد تقدما ، وتحاول الدول المتخلفة لاهثة أن تلحق بها ، ولكن للأسف فإن الفارق يتسع والفجوة تعمق . وهنا لابد من وقفة أساسية ، فإن كلمة بناء لايقصد بها مجرد التكوين الجسمى أو المظهرى، وإنما بناء الأخلاق التى تؤدى إلى أنواع كثيرة من السلوك ، لعل ما يبرز على السطح الآن احترام وطاعة القوانين سماوية كانت أو أرضية . ومن شأن هذه القوانين والامتثال لها أنها تؤدى إلى أداء الواجبات المطلوبة من الأفراد برغبة صادقة وعزم أكيد ، دون رقيب أو خوف من عقاب أرضى . ويتجلى هذا فى نتاج الأعمال .

(إن الله يحب من احدكم إذا عمل عملا ان يتقنه)

(صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم)

أداء الواجب نحو المجتمع ، نحو الوطن . يعنى أن هذا الفرد يشعر بعلاقة رصينة نحوه ، فيها حبه ورغبته فى تقدمه ، وفيها كراهية لما قد يصيبه من أضرار ، حب لخير المجتمع وكراهية لما يصيبه من شر .

هذا هو الانتماء والولاء نحو البناء .

بناء للمجتمع ، يشترك فيه أفراده عن وعى صادق ، متآزرين ومتعاونين للنهوض به ، فيجرى كل واحد ليضع لبنة فى صرح هذا المجتمع ، ويعمل عقله وتفكيره وعلمه مضيفا جديدا لو استطاع ، واثقا أن ما يقدمه لغيره هو مفيد له أيضا ، وأن غيره يقدمون له الكثير .

نقاط على حروف ... حائرة

وصولا مما سبق ذكره عن تربية أعماق الطفل وارتباطها بإحداث التقدم فى المجتمع ، يمكن تحديد أهداف مرحلة ما قبل المدرسة أو الصف الأول الابتدائى (مع الأخذ باقتراح تطويره وتعديله) تحديدا نابعا من حاجات الطفل النفسية والجسمية والاجتماعية والعقلية ، كما أظهرتها نتائج بحوث كثيرة محلية ودولية ، مع الإيمان بأن هذا يقع تحت مظلة التكوين الأخلاقى الرصين . وهناك بعض مطالب النمو تتم أساسا من خلال، أو بواسطة عمليات النمو الفسيولوجى كالحبو والمشى فى السنتين الأولتين. أما عن تعلم الطفل الكلام فيتأتى عن طريق النمو الفسيولوجى ، مضافا إليه الاحتكاك الاجتماعى مع المحيطين به ، لهذا فالطفل اليابانى يتكلم اليابانية والطفل المصرى يتكلم العربية ، بل تختلف اللهجات حسب المكان الجغرافى الذى ينشأ فيه وسط أسرته ، فلهجة الطفل البورسعيدى غير لهجة طفل نشأ فى أسرة فى أسيوط مثلا . ويمتص الطفل ممن حوله ما يكون لديه عادات واتجاهات نتيجة تفاعله واحتكاكه الاجتماعى معهم مما يلون بعض سلوكه فى مراحل نمو تالية .

أهداف مؤسسات رياض الأطفال

أولا : التنشئة الاجتماعية

وقد ترك الطفل البيت إلى بيئة جديدة عليه ، حيث يتساوى فى المعاملة مع بقية الأطفال الذين تضمهم هذه المؤسسة التى أعدت لاستقبال صغار ما قبل المدرسة الابتدائية، وهى معاملة ربما تختلف عن المعاملة التى اعتادها فى الأسرة . وسواء دخل الطفل مؤسسة ما قبل المدرسة الابتدائية أو التحق بالصف الأول الابتدائى مباشرة... فإنه يجد صعوبة فى وجوده وسط مجموعة كبيرة من الغرباء ، حتى لو كانوا فى مثل سنه ، وهو يفضل تلك المجموعات الصغيرة التى تضم من ١٠ إلى ١٥ طفلا ، ثم يواجه بعد ذلك تدريجيا مجموعات أكبر فأكبر .

إن عملية التطبيع الاجتماعى التى مر فيها الطفل فى الأسرة، ثم فى مجموعات صغيرة تكبر تدريجيا سوف تعلمه كيف يسلك السلوك المناسب نحو الآخرين ، وسوف يضع حجر الأساس لمفهومه عن نفسه وعلاقاته بغيره من الناس . كما ينمى الاتجاهات الخلقية والأساليب التى تجعله يتعامل بنجاح مع غيره من الأطفال والكبار خارج محيط الأسرة . إن نجاح الطفل فى هذه المعاملات يوصله إلى تحقيق ذاته وهذه أول السلم نحو تفهم حقيقة العلاقات بينه وبين غيره . إن الطفل لايعلم ماذا يحدث ولكنه يحدث ، فعلى سبيل المثال سوف تحدد هذه العلاقات ما له وما عليه (فى بساطة يسيرة) للدرجة التى تجعله يتفهم داخليا معنى الحق ومعنى الواجب (دون أن يعرف وأن يحفظ وأن يلقن ... إلخ الكلمتين) ، ولكنه على وعى بما يأخذ وما يجب عليه أن يعطيه . هذا أول السلم نحو بناء الإحساس بالانتماء للمجتمع الذى هو عضو فيه . نحن نكرر أن الطفل لم يسمع ولن يفهم معنى كلمة الانتماء فى هذه السن المبكرة ، ولكن بذرتها قد وضعت فى أعماقه ، وعلى البذرة أن تروى وأن يرعى النبت مع تدرجه فى نموه .

والتأكيد هنا على أن الأخلاق والاتجاهات الاجتماعية لا تنمو تلقائيا من مجرد احتكاك الطفل فى بيئته الاجتماعية ، وإنما للكبار دور مهم فى تربية الطفل اجتماعيا وخلقيا فى هذه المرحلة ، إذ يعرف عن الطفل ميله إلى التمركز حول ذاته وإلى العدوان حتى فى ظروف الاحتكاك الاجتماعى ، وهنا يبرز دور التربية فى توجيه وتشكيل السلوك . ودور المرشدة أو المشرفة أو المنشئة فى روضة الأطفال ليس مجرد تنظيم السلوك ، ولكن إلى جانب ذلك تعويد الأطفال على معايير السلوك التى يتطلبها المجتمع .

حدثت هذه الواقعة البسيطة فى أحداثها العميقة فى معناها فى إحدى رياض الأطفال حيث تنازع طفلان على كرة ، ولمحتهما المرشدة فى نظرة خاطفة وهما يتنازعان الكرة وقد يتشاجران . ذهبت إلى طفلة تتأرجح على (المرجيحة) وبجوارها تقف طفلة أخرى ، فاقتربت المرشدة منها وقالت لهاأن تساعدها فى دفع (المرجيحة) حتى تستمتع الطفلة التى عليها أكثر وأكثر ... وفعلا كانت هناك مساعدة ثم نادت المرشدة على كل الأطفال أن يحضروا لمشاهدة هذا المنظر حيث تساعد طفلة طفلة أخرى وحيث هناك مشاركة وتعاون وهناك أيضا أخذ وعطاء . وكان صوت المدرسة واضحا استمع إليه كل الأطفال حتى إن الكرة سقطت من بين أيدى الطفلين اللذين هرعا لمشاهدة ذلك الموقف الذى دعت إليه المرشدة ....

وتتكرر المواقف بعضها يشارك فيها الطفل وبعضها يتفرج عليها ، وبدون خطبة عصماء أو أوامر شديدة وبدون الوجه العابس ، وبدون التهديد بالعقاب كالضرب والحرمان ... إلخ . يتعود الطفل تدريجيا التخلص من أنانيته وعدوانيته ، ويستطيع أن يميز بين المواقف التى تتطلب منه أن يتخلى عن أنانيته وتمسكه برأيه ورغبته ليتمشى مع رغبة المجموعة ، وبين المواقف التى يتحتم عليه فيها أن يدافع عن حقوقه .

واضح أن عملية التطبيع الاجتماعى حيث تنمو بجلاء فى مؤسسات ما قبل المدرسة هى عملية يتعلمها الطفل ويمارس صورا شتى منها . وعلى المرشدة أو المنشئة يقع عبء كبير فى هذه العملية فهى (أو هو) إلى جانب تهيئة الظروف والمواقف الصالحة التى تعمل على هذا النمو .. فإنها تستطيع أن تساعد الأطفال على تحولهم من اتجاه التمركز حول الذات إلى ممارسة الأنشطة التى تتطلب المشاركة والتعاون ، وهى أنشطة تعد بعناية لتحقق ترسيخ مبادىء السلوك الخلقى الذى يجب أن يتحلى به الفرد نحو غيره من أفراد المجتمع ، سواء فى لعبه الحر أو فى علاقاته مع غيره من الصغار والكبار . وتعمل المرشدة على تحقيق هذا من خلال تعليقاتها الباسمة على سلوك الأطفال الاجتماعى ، ومن خلال تأنيبها المشبع بالعطف لسلوك ما كان يجب أن يحدث من طفل أو مجموعة أطفال ، ومن خلال تساؤلاتها وثنائها وتشجيعها على أعمال ....

ثانيا : التنمية العقلية

تتمشى جوانب النمو عند الطفل فى تكامل ، فيواكب نموه الانفعالى والجسمى والاجتماعى نموه العقلى . فالطفل غير الآمن لن ينمو اجتماعيا بالصورة المرجوة وبالتالى يضعف نموه العقلى . كماأن البحوث توضح كيف أن التأخر فى النمو العقلى، إن لم يكن مرجعه أسبابا ترتبط بخلقة الطفل وطبيعته الفطرية ، فغالبا ما يعزى السبب إلى ضآلة وضحالة المواقف التى يتعرض لها من حيث إنها غير مثيرة له ، ولا تحفزه على بذل أى نشاط عقلى كالتفكير البسيط مثلا . إن مواقف الخبرة التى يمر بها الطفل وتعددها وتنوعها من شأنها أن تزوده بحصول لغوى ، وبفهم معانٍ كثيرة ، وتكوين أحكام بعد أن يحصل على قدر من المعلومات (كأن يعرف أن الشكل الذى تكون عليه الكرة أسهل فى الحركة من الشكل الذى تكون عليه المكعبات التى يبنى بها بناء : أى أن الشكل الكروى سهل فى حركته عن المكعب) . وهذا الغنى فيما

يقتنيه الطفل من ألفاظ ومفاهيم ومعان هى من الأسلحة التى تمكنه بنجاح من تكوين علاقات اجتماعية . أى أن العلاقة متبادلة بين التكوين العقلى والتنشئة الاجتماعية ، فكل يؤثر ويتأثر بالآخر .

وقد وجد علماء النفس أنه لكى يكون النمو العقلى والانفعالى فى مرحلة ما قبل المدرسة ، سائرين فى طريقهما الصحيح يجب أن تتوفر البيئة الاجتماعية المناسبة والتى يتفاعل الطفل فيها مؤثرا ومتأثرا ، وبهذا يمكن أن نتوقع نموا عقليا وانفعاليا سليمين ، الأمر الذى لايتطلب إجراء عمليات تعليم ، كما يحدث فى صفوف المدرسة الابتدائية ، وإنما الطفل وسط الموقف المثير والمحفز هو الأمر المهم . واعتبارا من السنة الثانية من حياة الطفل فصاعدا .. فإن نمو اللغة وتكوين المدركات أو المعانى يترابطان ويكونان أساس النمو العقلى . والطفل فى كل هذا يتأثر بلغة المحيطين به ، ومن يتعامل معهم ، بل وبالعوامل المؤثرة فى البيئة كالإذاعة والتليفزيون . كما أن نشاط الطفل ومواقف الخبرة التى يمر بها وما يصاحبهما من انفعالات تعتبر كلها غذاء النمو العقلى . وعلى مؤسسات ما قبل المدرسة أن تهيئ المواقف والأجهزة والأدوات التى تساعد الطفل على هذه التنمية العقلية ، فى تنوع متجدد يثير الطفل دائما فلا يشعر بالملل أو الضيق .

أثرت فكرة النشاط ومواقف الخبرة هذه على بعض اتجاهات ماريا منتسورى الإيطالية وجان بياجيه السويسرى [١] فظهرت عند الأولى فيما أطلقت عليه اسم «اللعب الوظيفى» وعند الثانى فيما أطلق عليه «لعب التمرينات» .

فعلى سبيل المثال نوع من اللعب يسميه البعض «بلعب الأدوار» ويطلق عليه البعض «اللعب الإيهامى» فترى طفلا يمثل لاعبا ، دور الأب ، وربما يلون تحت أنفه وفوق شفته العليا باللون الأسود ، وقد يتعامل مع إخوته الصغار أو حتى مع بعض

(١) سيتعرض الكتاب لهما بشىء من التفصيل فيما بعد .

قطع الأثاث مصدرا الأوامر لهم ، أو لها ، أو لهم ولها ، ومقلدا على قدر المستطاع صوت الأب وربما استخدم بعض تعبيراته ، وحاكى بعض حركاته . وكذلك تلعب البنت دور الأم مع عروستها ، وقد تضربها ضربا خفيفا أحيانا وتحنو عليها وتقبلها أحيانا ، وتكلمها كثيرا ، وتأمرها أكثر ، وترغمها على النوم وتغطيها ... إلخ . والطفلة هنا تستخدم ألفاظا وتعبيرات تعلمتها من أمها ومن المحيطين والمحيطات بها .

وتستطيع المرشدة الإسهام بنجاح فى التكوين العقلى للطفل فى هذه المرحلة السابقة للمدرسة الابتدائية بأن تقص عليهم قصة ، وهى تحب القصص وهم يحبون سماع القصص (وهنا يجب أن يتعلم الأطفال كيف ينصتون ويستمعون ، ولا يقاطعون إلا بعد استئذان ، إذ أن هناك أخلاقيات فن الاستماع) . ويتحول بعض الأطفال بعد انتهاء القصة وبتوجيهات من المرشدة إلى تمثيلها مستخدمين بعض العبارات التى وردت أثناء قص القصة . وقد يمثل الأطفال لوحات تعبر عن بعض الأنشطة الموجودة فى المجتمع مثل العمل داخل مخبز ، ساعى البريد ، شرطى المرور ... إلخ . تضم عملية التمثيل هذه مجموعة إيجابيات تتعاون كلها نحو التربية المتكاملة للطفل ، وعلى رأسها بل هى كلها فى أساسها أخلاقية اللون والطعم والرائحة ، فإلى جانب المحصول اللغوى الذى يضاف إلى رصيده السابق ويثريه ويعززه ، فهناك المعانى التى كونها الطفل أو التى اشتقها من غيره ، وهناك النمو الجسمى بما يبذله الطفل من حركات ونشاط بدنى ، وهناك التهذيب الانفعالى الذى يتيح الفرصة للانفعالات كالسرور والغضب والعواطف (الحب والكره) بالإفصاح عن نفسها ، ولكن فى صورة مقبولة اجتماعيا ...

ويعتبر هذا واحدا من الأساسيات التى تلزم لتكوين القيم والاتجاهات والعادات، وهى مطلوبة فى بواكير الطفولة . قد حفظنا أطفالنا فى مدارسهم الابتدائية وتلاميذنا وطلابنا فى المدارس الإعدادية والثانوية والكليات الجامعية ، حفظناهم الكثير عن

التعاون على البر والتقوى من أجل خير الفرد وخير غيره . وكتبوا فى موضوعات الإنشاء كلاما جميلا رائعا ، ونحن شطار فى الأقوال ، أما الأفعال ... ذلك لأن الاتجاه التعاونى لم يتكون بدليل هذه الأنانية المتفشية والاهتمام القليل الضئيل بمصالح غيره وراحتهم . قد يمكن وضع بذرة أولى لتنمو شجرة التعاون ، عندما يمثل الأطفال تمثيلية يظهر فيها بجلاء أنه بدون التعاون لايتحقق النتاج النهائى . فعلى سبيل المثال رغيف الخبز الذى يدفع فيه والد الطفل قرشا واحدا أو ربما قرشين .... عدة أيدى اشتركت متعاونة حتى يصل هذا الرغيف إلى يد الطفل ، ولنبدأ بالوالد الذى يعمل ويكسب ، ثم أعطى قرشا إلى طفله اشترى به ذلك الرغيف . وقصته تبدأ من ساعة بذر بذور القمح فى الحقل ، وعدة أيدى تعمل فى الحقل حتى تنمو السنابل ثم تحصد ثم تذرى ثم تجمع ثم تنقل من الحقل إلى جهات متفرقة ... أيد كثيرة اشتركت ، ثم المطحن ثم إلى المخبز... آلاف الأيدى عملت فى وسائل النقل ، فى بناء المطاحن والمخابز ، ثم أخيرا وصل الرغيف إلى يد الطفل . وما كان يمكن لفرد واحد أن يزرع ويحصد ... إلخ . وإذا كانت هذه قصة الرغيف المنتج كلية محليا فما بالك بالدقيق الذى يستورد من قارات بعيدة ، طبعا ستزداد الأيدى بالمئات .

لايهم ، وقد لايجب أن تقول المرشدة إن هذا مثل رائع للتعاون والمشاركة ، وإنما يأتى المعنى تلقائيا إلى عقول الأطفال ببساطة عميقة التأثير . ولو أن المرشدة ألقت على أطفالها خطبة عن التعاون وأهميته وفوائده لكانت مثل الذى يكتب على الماء . وما أكثر الخطب والمواعظ الحاثة على القيم والاتجاهات وحميد العادات ، وتتكرر ، وعلى صفحات الجرائد تكتب ، وفى وسائل الاعلام عامة تنشر ... والنتيجة قد تكون واضحة فى أخلاقيات قد تكون شارع الفساد .

إذن فالتكوين العقلى للطفل مرتبط ومتلازم مع تكوينه الانفعالى ومتأثر بالبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها . وعندما نتحدث عن النمو العقلى نعنى به تنمية

قدرات عقلية ، مثل : الذكاء والتفكير والانتباه والملاحظة والتخيل والتصور والفهم والابتكار ... كما يتضمن المعنى أيضا ما يتعلمه الطفل ، وهو مكون من الحصيلة المعرفية أى المعلومات وما يكتسبه من مهارات عقلية .

ويعتبر هذا بمثابة التهيئة الضرورية لإعداد الطفل لبدء تعلمه القراءة والكتابة والحساب فى صورة منظمة متدرجة فى بداية المدرسة الابتدائية . إن دخول الطفل هذه المدرسة الابتدائية وقد أعد لها سوف يجعل تقبله لما يتعلمه أسهل وأسرع وأبقى . أسهل ، بمعنى أنه صار مستعدا عقليا لتقبله وفهمه ، وهذا يعنى أنه يتعلم أسرع ، كما أن التعلم القائم على الفهم أبقى وأرسخ .

ونحن هنا نحذر من خطورة تضمين خطة العمل بمرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية، تضمينها برامج لتعليم القراءة والكتابة والحساب ، إذ أن بعض أولياء الأمور يتسرعون فى لهفة وفى تهافت ، فيحبون أن يروا أطفالهم ما بين الرابعة والسادسة وقد أمسكوا بالأقلام يخطون بها على ورق ... هذا غير مستحب مطلقا ، وعليهم أن يهدأوا ، فإن تهيئة الطفل (للتعلم) قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية ، أو تكريس الصف الأول الابتدائى لعملية التهيئة هذه من شأنه أن يحقق لأولياء الأمور ولعلماء التربية نتائج أفضل بكثير مما يتحقق الآن ، هذا من ناحية الجانب المعرفى ، فإذا أضفنا إلى هذا التكوين الخلقى الرصين فإن مكسبا هائلا سيتحقق للمجتمع .

ولم تكن مجتمعات غربية وشرقية تهزل أو تعبث عندما قررت بعد دراسات وأبحاث الاهتمام البالغ بمرحلة ماقبل المدرسة ، بل إن دولة متقدمة كفرنسا تجعل الصف الأول الابتدائى (المرحلة الابتدائية خمس سنوات) مرحلة بذاتها تهيئ وتعد الطفل إعدادا متكاملا ليتلقى (التعليم) فى السنوات التالية .

ثالثا : اتجاهات نحو العمل

يحب الأطفال منذ نعومة أظافرهم التعامل مع الأشياء ، فنرى الطفل فى عامه الأول يمسك ما تصل إليه يده ويختبره بأن يضعه فى فمه ، وتدريجيا يتحول هذا السلوك إلى لعب بهذه الأشياء ، ثم يتطور إلى أشكال مختلفة من السلوك تتمشى مع مرحلة النمو . حتى إذا وصل إلى مرحلة ما قبل المدرسة نجد أن الأمر يتطلب تنظيما وسياسة معينين حتى نبدأ زرع الاتجاه نحو العمل الذى قد يتخذ ظاهريا شكل اللعب، ولكنه فى أساسه يزرع بذور حب وتقدير العمل .

يتجه بعض العلماء إلى تسمية هذا الاتجاه نحو العمل «بالغرضية» والسلوك الغرضى يعنى : السلوك الموجه منذ بدايته نحو تحقيق أهداف واضحة ومحددة على الرغم من وجود عقبات أو مشتتات للانتباه . إن تكوين هذا الاتجاه فى مرحلة ما قبل المدرسة ضرورى وأساسى لتعويد الطفل تلقى الأوامر وتنفيذها عندما يلتحق بمراحل التعليم التالية . وهذا السلوك الغرضى عامل مهم مؤثر فى إتمام عملية التهيؤ ليتلقى (تعليما) تقدمه له المدرسة الابتدائية فيما بعد .

وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى ما توصلت إليه هيتزر Hetzer من نتائج دراستها عن التفكير الابتكارى عند الأطفال . ومن هذه النتائج يتضح كيف يتحول لعب الأطفال من سلوك لاغرضى إلى سلوك غرضى يحقق هدفا محددا .

هنا .. يبدأ الطفل يكون مفهومه عن الفرق بين اللعب والعمل الجاد كأن ينفذ ما تطلبه منه المرشدة من أعمال لها نتائج مطلوبة سواء قام الطفل وحده بإنجازها ، أو اشترك مع بعض الأطفال الآخرين ، أو تعاون مع كل مجموعة الفصل . وتلاحظ هنا فى هذه العملية من العمل الجاد المثمر ، مجموعة اتجاهات عظيمة يتطلبها أى مجتمع يسعى إلى التقدم ، وهى :

(أ) أن يتحمل الطفل بمفرده مسئولية إنجاز عمل ما ، بعد أن تتحدد له أهداف هذا العمل وما ينتظر منه أن يعمله .

(ب) التعاون والمشاركة فى إنجاز عمل مع مجموعة ، يكون الطفل واحدا منها وهو هنا يعرف أهمية وقيمة التعاون فى إنجاز الأعمال .

(جـ) احترام العمل اليدوى حتى إذا كان الدور الذى يؤديه الطفل صغيرا جدا ، ولكن هذا أمر مطلوب حتى ينجز العمل على خير وجه .

(د) تنمية الانفعالات السارة بعد أن ينجز العمل على خير وجه ، ويتطلب هذا الإنجاز بالضرورة إرادة من الطفل واستمرارية فى العمل لأنه مسئول عن شىء ما ، وهنا يتضح الفرق بين اللعب والعمل الجاد ، فالطفل فى اللعب يستطيع أن يتركه فى أى وقت أما فى العمل الجاد فهو ملتزم .

ما أجمل وما أعظم وما أروع أن ينشأ أطفالنا وقد زرعت فى أعماقهم هذه الاتجاهات التى مع نموهم تصبح جزءا من نسيج تكوينهم . ويتدعم هذا التكوين الأخلاقى ويقوى على مر السنوات التالية بمزيد من تربية دينية سليمة بما فيها قدوة صالحة ، ومزيد من النصائح والأقوال والقصص التى تؤكد سلامة وضرورة السير فى هذه الاتجاهات وتنميتها .

إن المتطلع والدارس لما يعانيه المجتمع من بعض الخلل ، وكثير من التسيب قد يمكن إرجاعه إلى فقدان الشعور بالمسئولية عند بعض الراشدين إن لم يكن أغلبهم . كما أن الالتزام من جانبهم لايلقى الاحترام الواجب ، ثم إن شعورهم بأهمية العمل الجماعى ضئيل ضعيف،. وبمعنى آخر فيه شمولية أكثر ، فإن معنى أداء الواجب لايتركز على أعماق صلبة .

* * *

الأمر الذى نريد تأكيده هنا له جانبان :

(أ) المطلوب نوعية معينة من المدرسات أو المرشدات أو المنشئات أو الموجهات (أو المدرسين أو المرشدين ... إلخ) قد أهلوا وأعدوا تربويا ونفسيا واجتماعيا ، بحيث يمكنهم توجيه الأطفال توجيها سليما لبدء القيام بأعمال جادة ، ثم كيف يلاحظونهم أثناء إتيان هذه الأعمال متتبعين خطوات الإنجاز ، ثم موقفهم بعد اتمام العمل .

(ب) القدوة الحسنة ضرورية ، إذ لا جدوى أن يلقى المرشد أو المرشدة ببعض الأوامر ويتطلب سلوكا معينا من الأطفال ، ويكون هو نفسه بعيدا فى تصرفاته عن هذا المسلك المطلوب . إن فاقد الشيء لايعطيه ، حتى لو ملأ الدنيا صراخا وأعمل سياسة الإرهاب والتهديد والوعيد . إننا نعوذ بالله أن يكون هذا موقفا يتم داخل المدرسة عامة ، إذ إن من السهل على الطفل أن يسلك ما يرضى الراشد طالما هو موجود ، ويسلك الطفل ما يشاء عندما يغيب عن النظر هذا الراشد . هذا من أسوأ الأخلاق ... فإذا غاب القط لعب الفأر .

(جـ) ضرورة التدرج فى تكوين هذه الاتجاهات تدرجا ، يتمشى مع إمكانات وقدرات الطفل الجسمية والعقلية ، وكما يقول ابن خلدون بألا نهجم عليه فى أوائل النشأة بالصعب من الأمور ، وإنما يكون التدرج من البسيط إلى الصعب . ويؤدى قول ابن خلدون إلى أن تتاح الفرصة للطفل لأن يستشعر قدرته على الإنجاز ، وأن يستمتع بفرحته بالنجاح ... وهكذا تبدأ وتتكون مشاعر الثقة بالنفس والرغبة فى خوض المواقف الجديدة التى تتطلب قدرا ولو ضئيلا بالمخاطرة المحدودة جدا . ومعروف أن الفرد لايخاطر إلا إذا شعر بالأمن والطمأنينة . أن بعض ما نتصور أنه سهل جدا قد يكون صعبا على الصغير ، ويحتاج منه إلى تفكير وبذل جهد وتحمل ، ولا ننسى أن بين الأطفال فروقا فى القدرات والإمكانات والرغبات

والاهتمامات ... وهذه كلها أمور يجب أن تؤخذ فى الحسبان . نذكر أن مدرسا فى مدرسة ابتدائية اشتكى ذات يوم وهو يلوم تلاميذ فصله أنه بذل مجهودا كبيرا وتصبب جبينه عرقا ، عندما كان يحاول أن يفهمهم معنى كلمة الجزيرة . والجزيرة كما هو معروف قطعة أرض محاطة بالماء من جميع الجهات . أمر سهل جدا ولكن بالنسبة لنا نحن الكبار وصعب بالنسبة للصغار . ونذكر ذلك الصحفى الذى كتب فى إحدى المجلات كيف أنه أخذ ابنته الطفلة إلى المقطم لتعرف معنى كلمة (التل) ، وإلى القناطر الخيرية لتعرف معنى (الهويس) ، إذ إن المدرسة مرت على الكلمتين فى شرحهما مر الكرام .

(د) أهمية الاستمرارية فى السلوك وهذا أمر واجب حتى يتكون الاتجاه عند الطفل . إذ إن إتيان عمل مرة أو مرتين أو ثلاثة لايكفى لتكوين اتجاه كالتعاون مثلا ، وإنما يظهر هذا التعاون فى مختلف الأنشطة ، ومن الصغار والكبار على السواء، وبالبت هذا يتم فى كل المواقف التى يتعرض لها الطفل سواء فى البيت أو المدرسة أو المجتمع . ويتطلب تكوين اتجاهات صالحة نحو العمل أن يتحلى سلوك الطفل بالدقة والمثابرة ، وأن يظهر هذا بصورة مستمرة فى أعماله المختلفة .

(هـ) تهيئة المواقف المناسبة ليقوم طفل ما أو مجموعة صغيرة من الأطفال بإنجاز عمل لايعود عليه أو عليهم بفائدة مباشرة (اللهم إلا فرحة الإنجاز ولذة الاتمام) وإنما تعود على الغير سواء اليوم أو الغد ، سواء من المحيطين أو البعيدين ، سواء ممن يعرفهم الطفل أو لايعرفهم . هذه هى من قمم الغيرية المحطمة لاتجاه الأنانية عند الطفل .

ما أحوجنا إلى هذا السلوك ، والله على كل شىء قدير ، ويسخر عز وجل تربية فاضلة تزرع فى الأعماق هذه الأحاسيس والمشاعر .

رابعا : النمو الجسمى

أن يأتى هذا النمو بعد ثلاثة أنواع سبقته لايعنى التقليل من أهميته . إذ إن الترتيب هنا لم يقصد به تدرج فى التفضيل لأن كل أوجه النمو تتكامل لتحقيق أهداف تربية الطفل قبل المدرسة . ولعل التداخل بينها يكون واضحا فإن إنماء الجسم لايقف وحده دون أن تسانده التنمية العقلية والاجتماعية .

بل إن إنماء الجسم كتربية الأعماق من أجل الأخلاق وكغيرها ... لايقتصر على نشاط واحد محدد ، ولكنه متداخل بالضرورة فى جميع الأنشطة ، ويمكن أن ننظر إلى تربية الجسم من النقاط التالية :

(أ) العناية بالصحة وهذه مسئولية تشترك فيها كل مؤسسات المجتمع ، بادئة بالأسرة وممتدة إلى كل ما يؤثر على صحة الطفل [١]

(ب) التغذية : ولها أصول وقواعد ، ويجب أن يعرف الطفل بعض هذه القواعد فى بساطة ويسر ، وأن يشفع المعرفة بالسلوك المطلوب .

(جـ) تنمية العضلات الكبرى والصغرى التى تمكن الطفل من القيام ببعض الأعمال التى تتطلب مهارة يدوية معينة . وتتضح أهمية النمو العضلى فيما نادى به كثير من المربين من أمثال فروبل ومنتسورى ، ومن قبلهما جون آموس كومينيوس ، ومن قبل كل هؤلاء مفكرون إسلاميون أمثال ابن سينا والغزالى وابن خلدون - حيث اهتموا بحرية الأطفال فى اللعب والجرى والتأرجح والقفز والسباحة ..إلخ .

---

(١) تمنح المملكة المتحدة شهادة تمريض ، تخصص حضانة تؤهل البريطانيات للعمل بمؤسسات ما قبل المدرسة وتسمى حاملة هذه الشهادة (Nursery Nurse)

(د) تربية الحواس وسوف نرى فيما بعد ما أشار به كل من فردريك فروبل وماريا منتسورى بتهيئة ومد أطفال ما قبل المدرسة ، بمجموعة من الهدايا والألعاب التى تعمل على تنمية حواسهم كالسمع والبصر واللمس .

أيها الطفل

وإليك توجه جهود كثيرة وغزيرة فأنت المسئول بعد سنوات من نموك عن بناء المجتمع وتقدمه . ولذلك كان لابد أن تنال العناية الواجبة منذ بواكير طفولتك ، وأن تعد لك مؤسسات قبل المدرسة الابتدائية تطول مدتها أو تقصر ، أو تستقطع من سنى المدرسة الابتدائية سنة واحدة وربما سنتان حتى تهيأ لتلقى المقررات التى فى منهج التعليم الابتدائى أو الحلقة الأولى من التعليم الأساسى .

قد لايعجب بعض المربين والنفسانيين اصطلاح (الاستعداد للتعلم) ، خاصة بعد أن أظهرت كتابات أمريكية فى نهايات الخمسينات من هذا القرن ، وبداية الستينات اتجاهات نحو إمكانية تعليم الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب قبل سن السادسة بسنوات وصلت عند البعض إلى ثلاث . ومهما يكن الأمر .. فإننا نهتم هنا بما نطلق عليه تعبير (التهيئة) ، ونقصد بها إعداد الطفل من جميع نواحيه فى شمولية وتكامل لمواجهة المقررات التى ستقدم له فى المدرسة الابتدائية ، وقد بينا سابقا أن هذه التهيئة من شأنها أن تمهد الطرق لحسن تقبل المعرفة والمهارات المطلوبة مشفوعة بل ومدعمة ، بالبناء الأخلاقى السليم .

ونستخلص من كل ما سبق - وجاء ذكره فى هذا الفصل - عدة معايير هى ركائز للحكم على مدى (تهيؤ الطفل لمرحلة التعليم الابتدائى) ، وهى :

١- قدر من النمو العقلى يتميز - على سبيل المثال - فى إثراء محصوله اللغوى ، وتكوين معان ومفاهيم ومدركات، وإصدار أحكام ، وإدراك العلاقات بين الأشياء والتمييز بينها ، وإدراك الفروق بين الأزمنة والأمكنة ، وقدرته على أن يصب المعنى الذى يريده فى لفظ أو مجموعة ألفاظ تكون جملة لها معنى ، ... إلخ .

٢- قدرة على المشاركة فى عمل له فائدة قد تعود عليه أو على غيره . وهو إذ يعمل فإنما يحاول أن يحقق غرضا محددا . وقد يعمل بمفرده أو مع مجموعة صغيرة أو كبيرة ، ولكن الأمر المهم أن هناك غرضا أو هدفا يسعى للحصول إليه بالوسائل الخلقية التى ترتضيها معايير المجتمع الكبير .

٣- الإحساس (إلى حد يناسب نموه) بالحق والواجب والمسئولية والقدرة على حسن تلقى الأوامر والاستجابة لها ، والقدرة على حسن الاستماع . وفى غمار قيامه بالعمل .. يركز انتباهه ونشاطه فلا يشغله شاغل عنه ، ولا يتوقف عن اتمام عمل تاركا إياه فى منتصف الطريق ، دون استكمال وينطلق إلى عمل آخر . ويتطلب هذا قدرة على مقاومة وسائل التشتيت أو إغراءات اللعب واللهو .

٤- المقدرة على تحمل تقبل أوامر من طفل زميل له وربما فى مثل سنه وطاعتها ، طالما أنه يشترك مع جماعة فى نشاط قد يكون لعبا أو عزف موسيقى أو غناء ، أو حركات توقيعية . وكذلك القوة على أن يقود جماعة صغيرة ، أى أن يكون مرة فى مركز القيادة ، وأخرى يكون له قائد يتلقى منه التعليمات .

أيها الطفل أنت الآن صرت مهيأ لتلقى (التعليم) فى المدرسة الابتدائية بسهولة وسرعة وبقاء أطول لما تتحصل عليه .فأنت ذخيرة المجتمع ، بما تمكن لديك من أسلحة قوية تكونت فى أعماقك وأعطتك قدرات تدفعك إلى العمل والمشاركة ، كما منحتك دروعا تقيك شر الغواية وتحميك من آثام شارع الفساد ، وساحات الأقوال النابية ، والأفعال المجافية للذوق ، والتى ترفضها أوامر الدين وقوانين المجتمع .

بكل هذه الصفات نتأكد أنك تنتمى فعلا إلى بلدك ووطنك وأنك تشعر بالولاء نحوهما دون أن تعرف بعد معنى كملة الانتماء ، أو معنى كلمة الولاء ولكنهما فى حالة نمو فى أعماقك .

وقد توافق المؤلفين على أن يرتحلا فى سياحة شرقا وغربا لمزيد من المعرفة عن أطفال مثلك يعيشون فى ثقافات تختلف عن ثقافتك ، ولكنك أنت وهم من أسرة البشرية ولكم أجهزة جسمية واحدة ، وتجرى الدماء فى عروقكم من فصائل معروفة . وإن اختلفت ألوان البشرة وشكل الشعر واللغة فأنتم جميعا من خلق الله عز وجل الذى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، والمتوقع أن يكون سلوك البشر إنسانيا ... بعيدا تماما عن حيوانية بغيضة ، للأسف الشديد ، يزحف سلوكها حتى يكاد يسود شر أكثر من الخير ، يسود فساد أكثر من الاستقامة ، وتسود رذيلة أكثر من الفضيلة ، والجشع يدفع الناس - أيها الطفل - إلى سوءات الأعمال ذلك لأن أعماقهم خاوية إلا من كل بغيض مرذول ، نهت عنه شريعة الله وقوانين الإنسان الوضعية التى تحدد علاقة الفرد بغيره .

إن غياب المثول لهذه التشريعات السماوية والقوانين الوضعية لايمكن أن يأخذ - أيها الطفل - بأى مجتمع إلى تقدم حتى ولو أمطرته السماء ليلا ونهارا ذهبا وفضة.

ولكن أنت وغيرك بتربية أعماقك ستشرق شمس يوم جديد ، حاملة آمالا كثيرة، مشبعة بالخير والحق والجمال لغد عزيز مرتقب .